الفصل الخامس

سيكولوجيا الموت

* القاع النفسى للموت
* غريزة الموت
* رمزية الموت

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

ظل الإنسان دائماً، في مختلف الثقافات التي عرفتها الشعوب، مجرد لغز كبير. لغز يكافح، ويعانى، ويتألم، ويموت. هذا اللغز ـ الذي عرفته الطبيعة ـ هو الكائن الوحيد الذي تمكن من تدوين تاريخ نشاطه، وتاريخ وعيه على سطح هذا الكوكب[1]. لكنه لم يقف عند هذا الحد، فأمام معطيات الثورة العلمية والصناعية ـ التي فجرت شعلة الحضارة الحديثة وأحدثت تغييراً كبيراً في آفاق المعرفة ـ وجد الإنسان نفسه يندفع من جديد، للبحث عن تاريخ أعمق وأوسع للكون. فقد بدا له أن هناك ثمة حاجة ملحة للكشف عن المصادر الأولى؛ التي لعبت دوراً أساسياً في وجوده وتكوينه، فماذا يريد أن يفعل الإنسان؟ بماذا يفكر؟ وما هو تكوينه؟ وأين تكمن قواه الخارقة؟ وما هي القوانين التي تتحكم في آلية سلوكه وغرائزه؟ وإلى أى حد يقاوم الموت؟ وما هي استطاعة الحياة لديه؟ [2]. أسئلة كثيرة لابد لها من أجوبة علمية دقيقة. ومن أجل هذا انتظمت جهود العاملين في ميدان علم النفس، لتحليل وكشف مدى العمق الشديد الذي تنطوى عليه النفس البشرية.

لقد شهدت الحضارة الحديثة، منذ منتصف القرن التاسع عشر، ظهور عدد من مدارس علم النفس؛ لعبت أدواراً متكاملة متعددة الجوانب في تحليل الظواهر النفسية، وانصبت كل هذه الجهود لاكتشاف الضوابط الأساسية للفكر والسلوك الإنسانى على حد سواء. وهذا الجهد السيكولوجى، الذي بدأ مع "أرسطو"[(*)]، لم يأخذ مجراه العلمى الدقيق، إلا حين ظهر علم النفس لأول مرة كعلم مستقل[3]. ومنذ ذلك الحين، بدأت الدراسات التجريبية حول هذه الفاعلية الدينامية للإنسان،

(*) نشأ علم النفس Psychology كجزء من الفلسفة عند القدماء، إذ اعتبروا العقل مبدأ الحياة ومن ثم صدرت عنه الظواهر النفسية. ويمثل هذه الوجهة من النظر "أرسطو" الذي نظر إلى علم النفس بوصفه جزءاً من العلم الطبيعي الذي يدرس الوجود من حيث هو متحرك ومحسوس. والانفعالات من غضب وفرح وكراهية ومحبة ... تصدر عن النفس والجسم معاً، وذلك لأن الإحساس من فعل التخيل الذي لا يتحقق بغير جسم. ومن أجل هذا دخلت الانفعالات النفسية في العلم الطبيعي كما تصوره أرسطو قديماً.

وتنوعت الجهود وتعددت، وأدت ـ فيما بعد ـ لظهور المدارس السيكولوجية الكبرى (*) التي ما تزال بصماتها، تلون حياتنا النفسية بكثير من الفاعلية والتأثير.

هذا الولوج العلمى، داخل الإنسان، أثار معادلة الحياة والموت من جديد. فكيف تتجلى الحياة في شعورنا، وكيف تتضح رموز الموت في ساحة لا شعورنا العميق المظلم. لقد مثل الموت، دائماً، حالة تصدع نفسى مستمر، دفع الإنسان للبحث عن سلام عقلى؛ يحاول الإمساك به وسط دوامة الانهيار الدائم. فمهمة الإنسان ـ كانت وما زالت ـ إيجاد نوع من المرتكزات العقلية تساهم في جعل الموت مسألة مفهومة على نحو ما .

(*) من المدارس السيكولوجية الكبرى:

- المدرسة السلوكية Behaviorism وهى اتجاه في تفسير السلوك يرى أن الهدف الأساسى لعلم النفس هو دراسة السلوك الظاهر للكائن الحى، وذلك بوصفه متغيراً قابلاً للملاحظة والتجريب. ويمثل هذا الاتجاه: "بافلوف" Pavlov و"واطسون" Watson و"باندورا" Bandura.
- مدرسة التحليل النفسى Psychoanalysis وهى اتجاه يرى أن ما يحكم السلوك الظاهرى للفرد دوافع لا شعورية، وقوى داخلية لا منطقية، وغرائز بدائية، جميعها تساهم في توجيه السلوك البشرى والشخصية. ويمثل هذا الاتجاه: "فرويد" Freud و"أدلر" Adler و"يونج" Jung .
- مدرسة الجشتالت Gestalt وهى اتجاه يرى أن إدراكنا للأشياء يتم ككل ثم يتميز إلى أجزاء، ولهذا غلب أصحاب هذه المدرسة اتجاه النظر للسلوك ككل وليس كجزئيات أو وحدات مستقلة كما تفعل المدرسة السلوكية. ومن أهم ممثلى هذا الاتجاه: "ماكس فرتهيمر" Wertheimer و"كيرت كوفكا" Kofka و"كوهلر" Kohler.
- وهناك اتجاه رائده العالم السويسرى المعروف "جان بياجيه" Jean Piaget الذي يرى أن عالم النفس ينبغى عليه أن يهتم بالعمليات المعرفية، وهى جوانب من السلوك لا تخضع للملاحظة المباشرة، ولو أنها تلعب دوراً واضحاً في توجيه السلوك والشخصية والتعلم .
- الاتجاه الإنسانى Humanistic الذي تبلور كقوة ثالثة بين الاتجاه التحليلى والاتجاه السلوكى. والمنطلق الرئيسى لهذا الاتجاه، هو أن الإنسان بطبيعته مدفوع لفعل الخير، وأنه ينطوى على دافع رئيسى للنمو والارتقاء والإبداع وتحقيق الذات. ولهذا يرى علماء النفس الإنسانى أن وظيفة عالم النفس هي أن يساعد الأفراد على أن يكتشف كل منهم إمكانياته الحقيقية وإعانته على تحقيقها من خلال التوجيه والإرشاد. ويمثل هذا الاتجاه: "إبراهام ماسلو" Masiow و"فريدريك بيرلز" Periz و"كارل روجرز" Rogers .

* * *

obeikandl.com

القـاع النفســى للمــوت

السؤال عن موت النفس، أو موت الجسم شغل الكثيرين حتى وقتنا الراهن، وطرح – منذ أمد بعيد – مناقشات جدلية زاد من حدتها الانقسام الفلسفي الحاد الذي سيطر على مسرح الحياة المعاصرة. هل يموت الجسم وحده، وتبقى النفس خالدة؟ أم أن الموت دمار شامل، يطحن طرفي هذه المعادلة في سياق حدث كونى عام؟[4] ما هي نقاط الالتقاء والافتراق بين الفكر والمادة، بين الحياة والموت داخل الإنسان؟ هل النفس عالم خفي لا ينتمى إلى مكان معين، ولا يخضع لقانون محدد؟ أين تكمن؟ وكيف تعمل؟ وما هي حقيقة علاقتها بهذا الجسم الذي تسكن فيه؟[5]

الواقع أن اهتمام الفلاسفة – منذ القدم – بهذه المشكلة، إن هو إلا مظهر من مظاهر حب الإنسان لذاته أو حرصه على بقائه؛ أو خوفه على وجوده من أن يفقده في أية لحظة؛ أو رهبة منه لفكرة العدم التي بهرت فكره بالرغم من أنها تهدد كيانه تهديداً مباشراً مستمراً، وتدفع وجوده إلى حافة اللاوجود في كل لحظة من لحظات حياته. فحاول أن يدلل على وجوده، ويثبت هذا الوجود، بل حاول أن يؤكد ذاته، واستمرارها في الوجود، حتى ولو كان ذلك على حساب تفكيره: وذلك إما عن طريق الاعتقاد بلا برهان، أو عن طريق التقرير أو التبرير دون التدليل. واتخذ الإنسان في ذلك طرقاً وسبلاً اختلفت من التبسيط إلى التعقيد، وكان في ذلك أقرب إلى الناحية الدينية مرة، وإلى الناحية العقلية مرة أخرى، أقرب إلى الناحية الروحية مرة، وإلى الناحية المادية مرة أخرى[6].

والسؤال عن النفس كان من التساؤلات التي شغلت الإنسان في محاولة تفسيره لظاهرة الموت؛ فكيف ينعكس الموت داخل النفس؟ وكيف يتجلى؟ هل هناك فرق بين وعى الموت بشكله الموضوعى، ووعى الموت الداخلى الذاتى؟ لاشك أن هذه التساؤلات قد لعبت دوراً رئيسياً، أدى لانتقال البحث من أفق النظرة الميتافيزيقية للنفس، إلى مستوى التحليلات العلمية الموضوعية، التي حددت

نظرتها إلى الإنسان .

وقد توصلت الجهود العلمية لرصد ظاهرة الموت، وهى وإن أخذت صيغة شاملة لحقائق الوجود – في الكيمياء العضوية والبيولوجيا – فقد انصبت في مجال علم النفس على الظواهر السيكوفيزيقية(*)، في محاولة لاستبطان بنية العالم الداخلى للإنسان[7]. وهذا الأمر أدى لانتقال البحث من مستوى السؤال عن ماهية النفس، إلى مستوى تحليل قواها الفاعلة، ومعرفة وظائفها الأساسية. فهل تلعب هذه الدينامية أدواراً خاصة عند الحدود الفاصلة بين الحياة والموت ؟

ظاهرة الموت

هل الموت مجرد انعكاس شعورى لحادث طبيعى، أم هو ارتداد لما أبعد من الشعور؟ إننا بالتأكيد حين نقف أمام لحظة الموت، يفاجئنا هذا الانقسام النفسى الخاص؛ حين ندرك تماماً أن في أعماقنا شيئاً ما لم يمت بعد، وأن في أعماقنا شيئاً ما قد مات بالفعل. هذا الوعى بالتمايز القائم بين الشعور واللاشعور ساهم – بشكل فعال – في خلق دينامية الحياة النفسية. فالشعور، وهو الحياة في صيغة حاضر دائم، يقودنا عبر العالم في محاولة مستمرة لتأكيد وجوده؛ وهو تأكيد ينطوى على محاولة تود استيعاب اللانهائى في النهائى. هذا التناقض يتحول إلى جهد يخرج عن نطاق السيطرة العقلية المباشرة، وتتولاه آلية نفسية لا شعورية توضح أن الحياة باقية فينا، أو أنها لابد وأن تدب فينا مرة أخرى [8].

هذه الفاعلية اللاشعورية – وهى قوة غامضة أصيلة وعميقة داخل النفس – ترتكز في تكوينها على أنماط أولية كامنة وسابقة على أى مقياس علمى موضوعى؛ وهى تستمد غذائها وقوتها من غريزة حب البقاء، وغريزة الموت. لذلك تبدو فكرة

(*) الظواهر السيكوفيزيقية Pscychophysics هي الظواهر النفسية التي تتبدى على نحو تجريبى، وترتبط بأشياء فيزيائية تسمى بالأجسام. وبالتالى، فمهمة علم النفس هي أن يستكشف، بطريقة علمية، هذا العنصر النفسى داخل الكلية الفيزيائية للطبيعة، وأن يكتشف القوانين التي بمقتضاها يتكون ويتبدل .

الموت، وحتى ما بعد الموت، حلماً دائماً يكمن في اللاشعور؛ وبقاءه واستمراره في أعماق التكوين النفسى، إنما يعود لزمن دائرى يشكل نسيجه الخاص [9].

من هنا ظل الشعور دائماً ممثلاً للحياة، في حضورها المباشر الحى، بينما توارى الموت في ساحة اللاشعور؛ حيث تعقد محكمة ذاتية دائمة هي التي تقرر في النهاية، ما نريده أن يظل خالداً في أعماقنا حتى اللحظة الأخيرة، ولكن إذا كان الشعور هو الحياة في حضورها الدائم، فهل يعتبر اللاشعور بمثابة القاع النفسى للموت؟

كشفت لنا الدراسات السيكولوجية أن الشعور هو مجموعة من الوقائع تؤلف فيما بينها مجالاً نفسياً محدداً، وهذه الوقائع عبارة عن مكونات مستقلة وموضوعية؛ لكنها تشكل في مجموع تألفها عالم الشعور. لكن هذا المفهوم التقليدى للشعور، تعرض للنقد على يد "المدرسة الظاهرياتية"[*] التي قادها "هوسرل" وكان لها تأثير كبير في مجال الفلسفة وعلم النفس [10].

(*) لم تُعرف كلمة "الظاهريات" Phenomenology في تاريخ الفلسفة القديمة أو فلسفة العصور الوسطى أو حتى في الفلسفة الحديثة، إنما أول ظهور لهذه الكلمة كان مع العالم الرياضى الفلكى والفيلسوف الألمانى "يوهان هنريش لمبرت" Lambert (1777- 1728) حين أطلقها على القسم الرابع من كتابه "الأورغانون الجديد" الظاهريات أو نظرية الظهور. ولكن لم يلتفت أحد من الفلاسفة إلى هذه الكلمة الجديدة التي تشير إلى مظهر الطبيعة أو الوجود حين أطلقها "كانط" Kant (1724- 1804) على الجزء الرابع من كتابه "المبادئ الميتافيزيقية الأولى لعلم الظواهر أو الظاهريات". وجاء "هيجل" Hegel (1770- 1831) وأطلق كلمة الظاهريات على نظرية فلسفية متكاملة حين نشر عام 1807 كتابه "ظاهريات الروح". وأصبحت هذه الكلمة تشير إلى نمط خاص من المعرفة الفلسفية نعنى به "العلم المطلق". فليست الظاهريات عند "هيجل" علماً للماهيات وحدها، أو علماً للوجود ولكنها علماً للمطلق. ولهذا السبب فهى ليست في حد ذاتها منهجاً للمعرفة أو منطقاً أو أورغانوناً. إنها علم الشعور بما هو معلوم لذات الشعور. أما مذهب الظاهريات الذي وضعه "هوسرل" Husserl (1859- 1938) فإنه يبدأ من نقد الرياضيات ليتوصل من ذلك إلى اكتشاف طريقة تمكن من تحصيل الحقائق الأساسية. والقاعدة الجوهرية ـ في هذا المذهب ـ هي "الذهاب إلى الأشياء نفسها" مستبعدين كل النظريات السابقة المتعلقة بالواقع. ويقوم هذا العمل على مبدئين: مبدأ سلبى وهو "الايوخة"، أى الوضع بين الأقواس لكل ما لم يبرهن عليه بطريقة يقينية. ومبدأ إيجابى يقوم على الإهابة بالعيان المباشر للأشياء أى للظواهر لأنها هي الأمور المعطاة لنا حقاً. وميدان العيان الظاهرياتى يتألف، إذن، من كل الظواهر المعطاة للشعور. ومهمة الظاهريات هي الكشف عن عالم الظواهر ووصفه بكل دقة، وعلى الفينومينولوجى أن يخلص أبحاثه من كل المشاكل الزائفة، والمعانى الكاذبة التي تلقيناها من الماضى ومن كل الأحكام السابقة التي من شأنها أن تعوق الفكر الفلسفي .

يرى "هوسرل" أن علم النفس ينطوى بالضرورة، على تشويه أو سوء فهم لحقيقة الوعى أو "الشعور". وآية ذلك أن عالم النفس حين يأخذ بالموقف الطبيعى، فإن الإنسان الذي يدرسه إنما هو الإنسان من حيث هو جزء من العالم. وحينما يتحدث عن الشعور، فإن رتبة الوجود التي ينسبها إلى الشعور لا تختلف اختلافاً جذرياً عن رتبة الوجود التي ننسبها ـ في العادة ـ إلى الأشياء. والشعور ـ في نظر عالم النفس ـ موضوع لابد من دراسته، وهو حين يحاول دراسة هذا الموضوع فإنه لا يراه في وسط غيره من الموضوعات، أعنى لا ينظر إلى الشعور إلا بوصفه حدثاً في النظام العام للعالم. أما الشعور في نظر "هوسرل"، فإنه هيهات لنا أن نصل إلى تصور صحيح له، اللهم إلا إذا عمدنا إلى القيام بتحليل من نوع آخر نستطيع عن طريقه أن نكتشف في صميم خبرتنا ماهية الحياة النفسية، أو معنى الشعور بصفة عامة. فليس في استطاعتنا أن نعرف ـ على وجه التحديد ـ ما هو الشعور، إلا إذا استشعرنا في أعماق ذواتنا معناه الباطن؛ بحيث نتمكن عن هذا الطريق من الحصول على "حدس ذهنى" عن هذا الشعور نفسه[11]. معنى هذا، أن الشعور ليس موضوعاً يقبل الملاحظة أو المشاهدة الخارجية، بل هو حقيقة نفسية تستلزم ضرباً من "التحليل القصدى".

يقول "هوسرل" :

> "إذا أردنا أن نبحث العلاقة القائمة بين الشعور والوجود، فإننا لن نستطيع أن نضع نصب أعيننا إلا الوجود بوصفه متضامناً مع الشعور، بوصفه شيئاً مقصوداً وفقاً لطريقة الشعور: أى بوصفه مدركاً، أو متذكراً، أو متوقعاً، أو متمثلاً على هيئة صورة ذهنية، أو متخيلاً، أو متعيناً، أو متميزاً، أو معتقداً فيه، أو مظنوناً، أو مقوماً ... إلخ إذن، فالبحث لابد أن يوجه صوب معرفة علمية ماهوية للشعور، صوب ذلك الذي يجعل الشعور ذاته "هو ما هو" حسب ماهيته في أشكالها القابلة للتميز" [12].

الشعور عند "هوسرل"، ليس مجرد إناء يحتوى موضوعاً؛ بل هو الفعل الذي نتجه به نحو الموضوع. وهو ـ بهذا المنحى ـ ذو اتجاه قصدى يرتبط بالموضوع ويعطى للأشياء دلالتها الكامنة فيها، وهى دلالة تستند على نقطة ارتكاز داخل الشعور، فتخلق العلاقة بيننا وبين العالم الخارجى .

وإذا اعتبرنا أن اللاشعور هو القاع النفسى للموت، فإن مذهب الظاهريات أنكر وجوده، وأصبحت الحياة النفسية ليس أكثر من حركة دينامية، يلتقى خلالها ما هو موجود في العالم الخارجى، مع نقطة ارتكاز ماهيته داخل الشـــعور[13].

نحن – في إطار المفهوم الفينومينولوجى – لا نعيش الأشياء بوصفها أشياء، بل بوصفها ذات دلالة تشدها إلى الشعور، وتشده إليها. ومن هنا ينبغى للموت أيضاً، أن يكون ظاهرة شعورية؛ لأن واقعة الموت التي تحدث في العالم الخارجى ينبغى أن تكون ذات دلالة شعورية أيضاً. أما حين أموت أنا بالذات، فكل ما له دلالة شعورية يموت أيضاً، وكأن أحداً أطفأ الأنوار في داخلى وفي العالم الخارجى دفعة واحدة. والسؤال هو: ألا تترك فينا هذه الدلالة الشعورية أثر أكثر عمقاً حين يموت مثلاً شخص محبب إلى قلوبنا؟ من أين ينبع هذا الألم الخاص؟ وأين يكمن فينا؟ لماذا كلما واجهتنا لحظات الموت، في أى مظهر من مظاهر الحياة، نشعر بتوتر ينبع من إحساسنا العميق بالخوف؟ أين يكمن فينا هذا الخوف؟ أهو مجرد فعل شعورى نجم عن حدث تم في الزمن الحاضر، أم هو محصلة خبرات ترسبت في مجال نفسى خاص؟ [14].

إذا كانت الحياة، بصفتها حضوراً مباشراً في الشعور، تمثل تفاعلاً بينى وبين العالم الخارجى؛ فإن الموت – حضور غير مباشر في ساحة اللاشعور – يمثل تفاعلاً بينى وبين العالم الداخلى الخاص. وكما يأخذ الوجود قيمته من خلال ماهية كامنة في الشعور، كذلك يأخذ الموت قيمته من خلال ماهية كامنة في اللاشعور. هذا يعنى، أن الحياة النفسية تنطوى على شعور هو منطلق الوعى بالحياة، وعلى شىء نفسى آخر هو منطلق الوعى بالموت. وهذا الحيز النفسى العميق هو عالم اللاشعور.

* * *

غـــريـزة الـمـــوت

كان كل اهتمام علماء النفس قبل ظهور مدرسة التحليل النفسى متجهاً إلى دراسة الظواهر العقلية الشعورية، ولم يكن أحد منهم يهتم بالبحث عن العمليات العقلية اللاشعورية التي تحرك سلوك الإنسان وتدفعه إلى القيام بصور النشاط المختلفة السوية والشاذة على السواء. ولقد كان من نتيجة إغفال علماء النفس في الماضى لهذه الناحية الهامة من الحياة النفسية أن ظل كثير من مظاهر السلوك الإنسانى عصياً على التفسير، وصعباً على الفهم، وبعيداً عن متناول البحث العلمى.[15]

ويرجع الفضل إلى "سيجمند فرويد"[*] في اكتشاف تلك الحقيقة وهى أن جزءاً كبيراً من حياتنا العقلية لا شعورى، وأن لهذا الجزء اللاشعورى ـ من حياتنا العقلية ـ تأثيراً كبيراً على سلوكنا ومشاعرنا سواء في حياتنا السوية أو فيما نتعرض له من اضطرابات وأمراض نفسية. ومن هنا قسم فرويد الحياة النفسية إلى ثلاثة مستويات هى: الشعور، وما قبل الشعور، واللاشعور.

وكان "فرويد" يعنى بالشعور ما كان يعنيه سائر علماء النفس وعامة الناس من هذه الكلمة. فهو ذلك القسم من العمليات النفسية التي نشعر بها وندركها. ومن المشاهد أن العمليات النفسية الشعورية لا تكون سلسلة متصلة، بل يوجد فيها دائماً كثير من الثغرات والفجوات. وقد رأى "فرويد" أنه من الممكن تفسير هذه الثغرات في سلسلة العمليات النفسية الشعورية بالرجوع إلى العمليات النفسية التي تجرى في القسمين الآخرين من العقل وهما "ما قبل الشعور" و"اللاشعور"[16].

(*) "سيجمند فرويد" S, Freud (1856 ـ 1939) مؤسس مدرسة التحليل النفسى وواضع منهجها ونظريتها الأساسية. وهو أصلاً طبيب نمساوى متخصص في الطب العصبى والنفسي.

إن الشعور حالة وقتية وليست دائمة، فالفكرة قد تظهر في الشعور لفترة قصيرة ثم تختفى؛ وهى تستطيع الظهور مرة أخرى في الشعور بسهولة إذا توفرت شروط معينة. وحينما تبتعد الفكرة عن الشعور لحين ما، فإنها تكون موجودة في قسم معين من الجهاز النفسى يسميه "فرويد" "ما قبل الشعور" وهو يقع في مكان متوسط بين الشعور واللاشعور.

وتوجد بعض العمليات النفسية التي تستطيع أن تحدث في النفس جميع الآثار التي تحدثها الأفكار العادية بدون أن تكون هي ذاتها شعورية، وهى تحتاج إلى كثير من المشقة والجهد لكي تصبح شعورية. وهذه هي العمليات النفسية التي يسميها فرويد "لاشعورية"، وهى موجودة في ذلك القسم من الجهاز النفسى الذي يسمى "اللاشعور" (17). ويحوى اللاشعور الدوافع الغريزية البدائية الجنسية والعدوانية التي غالباً ما تكبت في مجتمعاتنا المتحضرة تحت تأثير المعايير الخلقية والدينية والاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد. وتنزع الدوافع والرغبات المكبوتة في اللاشعور إلى الإشباع وإلى الظهور في الشعور، وهى كثيراً ما تلجأ ـ في سبيل ذلك ـ إلى طرق شاذة ملتوية كما يشاهد مثلاً في الأمراض العصابية. واتضح "لفرويد" ـ فيما بعد ـ أن آراءه السابقة في الجهاز النفسى في حاجة إلى تعديل، فقال بأقسام ثلاثة جديدة للجهاز النفسى هى:

- **"الهـــو" Id وهو يحوى كل ما هو موروث، وما هو موجود منذ الولادة، وما هو ثابت في تركيب الجسم الإنسانى. وهو لذلك يحوى ـ قبل كل شىء ـ الغرائز التي تبعث عن التنظيم الجسمى، وتجد هنا أول تعبير نفسى للغرائز في "الهو" في صور نجهلها .**
- **"الأنـــا" Ego هو الوسيط بين "الهو" والعالم الخارجى، ويقوم بسلطة الإشراف على الحركة الإرادية ويقوم أيضاً بمهمة حفظ الذات وهو يقبض على زمام الرغبات الغريزية التي تنبعث عن "الهو" فيسمح بإشباع ما يشاء منها ويكبت ما يرى ضرورة كبته .**
- **"الأنا الأعلى" Super ego وهو ذلك الأثر الذي يبقى في النفس من فترة**

الطفولة الطويلة التي يعيش فيها الطفل معتمداً على والديه وخاضعاً لأوامرهما ونواهيهما. ويقوم الأنا عادة بتقمص شخصية الوالدين ومن يشبههما من المدرسين والمربين، وبذلك تتحول سلطة هؤلاء الأشخاص إلى سلطة نفسية داخلية يطلق عليها "فرويد" "الأنا الأعلى" أو "الأنا المثالى" The Ego-Ideal وهو ما يعرف عادة بـــ "الضمير" [18].

إذن، استطاع "فرويد" أن يكتشف أبعاداً أكثر عمقاً في ساحة الحياة النفسية للإنسان سواء كانت شعورية أو لا شعورية، هذه الأبعاد تصدر عن قوى دينامية أساسية تسمى "الغرائز". فقد رأى أن هناك نزعة داخل الإنسان، تدفعه للميل دائماً نحو تكرار تجاربه السابقة، أو ما يمكن تسميته برحلة العودة نحو مراحل سابقة من النمو. وهو رحلة تنطوى على رغبة شديدة وأصيلة – إلى درجة أن "فرويد" قد اعتبرها – نزعة ملازمة للحياة العضوية. وهذا التصور بالذات هو الذي دفعه لطرح ما يسمى بـــ "غريزة الموت" Death-Instinct .

آليـة المـوت

بدأ "فرويد" بوضع نظرية سيكولوجية في الغرائز أساسها مكتشفات التحليل النفسى، والغاية منها توضيح مغزى هذه المكتشفات من حيث الداوفع والميول العامة. فافترض – بادئ ذى بدء – وجود دوافع غريزية متعارضة هي دوافع الأنا والدوافع الجنسية، تستهدف الأولى حفظ الفرد والثانية حفظ النوع [19]. وتعمل الغرائز وفقاً لمبدأ "اللذة"، فليس الدافع الغريزى في الواقع إلا ناتجاً عن حالة من التوتر ينتج عنها إحساس بالألم. ويؤدى الدافع الغريزى إلى خفض هذا التوتر أو إزالته، وحينما ينخفض التوتر أو يزول يحدث الشعور باللذة. ولذلك اتخذ "فرويد" من مبدأ اللذة أساساً يفسر به الظواهر النفسية المختلفة، كما يفسر به الأعراض العصابية. فليست الأعراض – في نهاية الأمر – إلا محاولة بديلة أو حلول توفيقية تهدف إلى التخلص من التوتر وتجنب الألم [20].

لكن "فرويد" عدل هذه النظرية بناء على ما شاهده من ظواهر مرضية تتسم بوجود دوافع غريزية غير قابلة للتعديل، وإنما تتكرر في حياة الفرد

تكراراً آلياً أعمى، وهى معارضة لدوافع الحياة معارضة صريحة. لذلك أعاد تصنيف الغرائز فأدرج دوافع حفظ الذات ودوافع حفظ الجنس تحت غريزة "الحياة أو الأيروس" Eros(*)، ووضع في مقابلها ما أسماه غريزة "الموت أو الثناتوس" Thanatos(**)(21).

إن هدف أولى هاتين الغريزتين الأساسيتين هو العمل دائماً على تكوين وحدات أكبر ثم تعمل على بقائها. إذن هدفها هو تأليف الأشياء بعضها إلى بعض. وهدف الغريزة الثانية هو، على العكس، تفكيك الارتباطات، ومن ثم هدم الأشياء. ويمكننا أن نفترض أن الهدف النهائى لغريزة الهدم هو إعادة الكائنات الحية إلى حالة غير عضوية. ولهذا السبب تسمى بـــ "غريزة الموت". وإذا افترضنا أن الكائنات الحية ظهرت بعد الكائنات غير الحية وأنها نشأت منها، فإن غريزة الموت تتفق ــ إذن ــ مع القول الذي سبق ذكره، وهو أن الغرائز تميل إلى العودة إلى حالة سابقة. ولكننا لا نستطيع تطبيق هذا القول على أيروس أو غريزة الحب. فذلك يتضمن أن المادة الحية كانت في وقت ما وحدة مؤتلفة ثم تفرقت أجزاؤها بعد ذلك وأنها الآن تنزع إلى الاتحاد من جديد (22).

وقد تتعارض الغريزتان الأساسيتان في الوظائف البيولوجية، وقد تأتلفان معاً، فعملية الأكل عبارة عن تحطيم للطعام لغرض إدماجه في الجسم. والعملية الجنسية عبارة عن فعل عدوانى الغرض منه الوصول إلى أوثق أنواع الاتحاد. وتصدر عن هذا التفاعل بين الغريزتين الأساسيتين في ائتلافهما وتعارضهما جميع ظواهر الحياة المختلفة. ويمكن أن نصف مطلع الحياة النفسية بأن نفترض

(*) "إيروس" هو إله الحب في الأساطير اليونانية، وقد استعمل فرويد هذا اللفظ بمعنـــى "غريـــزة الحـــب" وهى تتضمن مجموعة القوى الحيوية والدوافع الغريزية التي تهدف إلى الحصول على اللذة الجنـــسية وإلى حفظ الذات. وكثيراً ما يستعمل المحللون النفسيون كلمة "إيروس" بمعنـــى "الليبـــدو" أى الطاقـــة الجنسية.

(**) "ثناتوس" هو إله الموت في الأساطير اليونانية، وقد استعمل فرويد ــ أيضاً ــ هـــذا اللفـــظ بمعنـــى "غريزة الموت" أو غريزة الهدم، ويرى فرويد أنه إذا اتجهت هذه الغريزة إلى الخـــارج بـــدت فـــي صورة رغبة في العدوان والتدمير. استطاع أن يفسر ــ من خلال غريـــزة المـــوت ــ كثيـــراً مـــن الظواهر النفسية المعقدة التي كانت تحيره من قبل كالسادية والماسوكية .

أن كل طاقة "أيروس" موجودة في النفس، وهى تعادل دوافع الهدم التي توجد معها في الوقت نفسه. وطالما كان عمل غريزة الموت قاصراً على الداخل فهى تظل صامتة ـ كما يقول "فرويد" ـ "ولا تظهر نشاطها بل تعمل خافية في أعماق الكائن"[23]. الذي لا يفطن إليها إلا حينما تتجه إلى الخارج وتصبح غريزة هدم .

وهكذا يبدو الموت ـ عند "فرويد" ـ متأصل في الحياة النفسية، وهو مجرد حنين عميق لعالم "النرفانا"(*) وتلك نزعة يتضمنها مبدأ اللذة، والتى تعمل على خفض التوتر الداخلى الذي يترتب على فعل المثيرات أو العمل على التخلص منه؛ والتزام الثبات والسكون. وإدراكنا لهذه الحقيقة هو أهم الأسباب التي تدعونا إلى الإيمان بوجود غرائز الموت.

* * *

(*) "النرفانا" Nirvana فكرة مأخوذة من الفلسفة البوذية التي نشأت في بلاد الهند، ويقصد بها الحالة التي يصل إليها الإنسان بعد خلاصه من كل ألم. وكانت "النرفانا" غاية لا يصل إليها إلا الشخص الذي مات، ولكن أتباع هذه الديانة أضافوا بعد ذلك إلى أن المرء يستطيع أن يظفر بـ"النرفانا" في هذه الحياة؛ إذا كان قد أفلح في إطفاء ما بنفسه من الأهواء والشهوات. وقد استخدم "مبدأ النرفانا" Nirvana Principle لوصف النزعة الغالبة على الحياة النفسية، وهى خفض التوتر النفسى والتخلص منه. ويرى "فرويد" أن "مبدأ النرفانا" تابع لغريزة الموت التي تنزع إلى إعادة المادة الحية إلى الحالة غير العضوية التي كانت عليها من قبل، وهى حالة تتميز بالثبات والسكون .

obeikandl.com

رمـــزية الـمـــوت

حين نتحدث عن الموت ـ بصفة عامة ـ ينتابنا إحساس نفسى عميق، يثير مجموعة من الهواجس؛ تتبلور حول دافع الخوف. فالموت، إلى جانب كونه إحساساً عميقاً بالهدم العضوى الباطنى، يوحى لنا بأن الحياة مجرد إمكانية معرضة للتوقف في أى لحظة. وفي كل خطوة يخطوها الإنسان، إنما يستهدف الآمان دائماً؛ ولهذا فإن كل الوسائل الدفاعية التي يلجأ إليها تكفل له الأمن الخارجى، وذلك من خلال معادلات سلوكية يضبطها العقل. ولكن لابد أن تقابلها وسائل دفاعية أولية تكمن في أعماقه النفسية ويكون بمقدورها أن تكفل التوازن والأمن الداخلى[24].

وما دام الموت الباطن في أعماق اللاشعور ينجم عن آلية الهدم، فإن أى وسيلة دفاعية داخلية لابد لها أن تكون أيضاً تابعة من أعماق الفاعلية النفسية. ومن هنا نجد أن نظرية التحليل النفسى ـ التى قادها "فرويد" ـ قد ركزت على مبدأ أساسى وجوهرى هو: "مبدأ اللذة". ويعترف "فرويد" بأن لفظ "لا شعور" نطلقه على ميكانيكية نفسية[*] نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف بوجودها لأننا نستنتجها من مظاهرها دون أن نعرف عنها شيئاً، كما أننا ـ في مناسبات معينة ـ نتحدث ونسلك على نحو يبرهن على وجود ميكانيكيات أو حيل داخلية تتصف بكل سمات الحياة النفسية فيما عدا "الشعور"[25].

في هذه المنطقة، نلتقى مع ما يسميه "فرويد" بـــ "الأنا الأدنى" وهو جذر

(*) تركز نظرية التحليل النفسى على مبدأ أن التفكير والنشاط مشتقان من ميكانيكية بعيدة عن تحكم الشعور وتعرف باصطلاح "اللاشعور". وعند فرويد يعبر "اللاشعور" عن شىء أكثر من فكرة الميكانيكيات البعيدة عن الشعور مثل: اختزان الأحاسيس التي تصبح لا شعورية بمرور الزمن. وقد ركز فرويد ـ بوجه خاص ـ على الطبيعة الإيجابية والصفة الدينامية لهذه الميكانيكيات اللاشعورية التي تؤثر في أفكارنا وتحدد حركاتنا الشعورية .

خصائصنا الوراثية المشتركة مع بقية الكائنات الحية؛ حيث يكمن بالتأكيد غرائزنا الأساسية. وهذا "الأنا الأدنى" ملك الأعماق السفلية وهو الذي يملك القدرة على حفظ التوازن في عالمنا الداخلى. ولكن ما هي الميكانيكية الداخلية التي تحكم الأنا وتعطيه القدرة لتحقيق التوازن؟ إنها آلية دفاعية تستيقظ في اللحظة التي نتعرض فيها لحالة من الخلل أو عدم التوازن. ومن هنا فإن فرويد، يعطى أهمية كبرى ـ في تفسير سلوك الأنا الأدنى ـ إلى مبدأ اللذة، ويرى أن هذا المبدأ هو مصدر أى نشاط تقوم به "الأنا الأدنى" وهو الذي يحكمه أصلاً [26].

على هذا الأساس، فإن منحى التوتر الناجم عن آلية الموت ـ في البنية النفسية ـ يقابله مبدأ اللذة، كأسلوب دفاعى يسعى لتحقيق حالة أفضل من الإشباع والارتواء الداخلى. وهذا أمر يؤجل إحساسنا العميق بالموت، ويمنحنا الأمن الداخلى ولو كان مؤقتاً .

مرآة الموت

إن دراسة "جاك لا كان"[*] الموسومة باسم "مرحلة المرآة" هي أهم وأعمق الدراسات السيكولوجية التي تتناول صورة الذات عبر الآخر وفي المرآة أيضاً. فالإنسان عندما يشاهد صورته في المرآة ـ التي هي بالنسبة إليه "أول آخر" أو "أنا آخرى" ـ يكون في مفترق طرق، إن جاز هذا التعبير؛ فإما أن تكون صورته المرآوية بمثابة الجسر الذي يفضى به إلى إدراك "الآخر" بالمعنى الحقيقى للكلمة،

(*) جاك لاكان Jacques Lacan (1901 – 1981) مفكر فرنسى ومحلل نفسى شهير، طور نظرية "فرويد" وأعاد تشكيلها على أسس من البنيوية اللغوية التي ابتدعها المفكر السويسرى "فرديناند دوسوسير" Ferdinand de Saussure (1857 ـ 1913) الذي كان له تأثير كبير في الفلسفة البنيوية الفرنسية. لم يعد اللاشعور عند "لاكان" مجموعة من الدوافع والغرائز البيولوجية، بل بالأحرى نسقاً من الدلالات اللغوية. ويمكن أن يقال عن "لاكان" أنه فرويدى، بمعنى أنه أحل نسقاً من الوظائف الرمزية محل الذات الديكارتية، فالأنا ـ على العكس من المعايير المعروفة ـ هي الإسقاط المتخيل، فهى لا تقترب من الأنا الواقعية التي هي عند "لاكان" بعيدة المنال؛ ولا يمكن التعبير عنها في حدود اللغة.

فيكون بذلك سائراً في طريق النمو الطبيعى السوى، حيث تبدأ شخصيته المستقلة أو وعيه الذاتى في التكون والتخلق (وذلك من خلال الوعى بالآخر)؛ وإما أن تكون صورته المرآوية بمثابة الشرك أو الفخ الذي يأسره (مثل نرجس(*) في الأسطورة اليونانية) فينحرف عن طريق النمو السليم، ويسير بالتالى في طريق ملئ بألوان شتى من المرض النفسى أو العقلى؛ تدور في أغلبها حول محو فقدان الذات لذاتها من خلال توحدها بالآخر [27].

انطلاقاً من هذه الفكرة الأخيرة والمتعلقة بفقدان الذات لذاتها، عرض "لاكان" لمفهوم "الموت" عند "فرويد" وتوسع فيه، بوصفه قيمة تظهر من خلال ماهية كامنة في "اللاشعور" وتتم بواسطة عملية دينامية يظهر انعكاسها في الحياة النفسية [28]. ويصرح "لاكان" أنه لا سبيل لنا إلى تعقل "اللاشعور"، إلا إذا نجحنا في تحويله إلى بنية؛ بحيث يتسنى لنا اكتشافه والوقوف على معالمه من خلال عالم "اللغة"، أى من خلال "الوظيفة الرمزية"(**) التي تحدد وجود الإنسان وتتحكم في كل أنشطته[29].

وقد اكتشف لاكان رمزية من نوع آخر هي "الرمزية النفسية اللاشعورية" (على نحو ما تتجلى في الحلم والعصاب القهرى)، وهى رمزية كلية عامة نجد فيها كل أساليب البيان (من استعارة، وتشبيه، وكناية.. إلخ) على نحو ما تستخدمها الذات الفردية الواحدة في عملية طرحها أو تجاهلها لدوافعها الوجدانية الخاصة التي تعمد إلى كبتها؛ مستخدمة شتى صور الحلم والأسطورة [30].

(*) "نارسيس" (نرجس) Narcissus فتى بهى الطلعة في الأساطير اليونانية، اكتشف صورته على صفحة الماء وكان أسير صورته الجميلة حتى الموت والفناء، وإلى الحد الذي لم يهتم معه بشىء آخر، فترك نفسه يهلك من فرط عشقه لصورته .

(**) ظهرت "الوظيفة الرمزية" عند "فرويد" في كتابه الضخم المسمى باسم "تفسير الأحلام" علم 1900، وتتجلى بصفة خاصة من خلال "عقدة أوديب" التي تمثل بؤرة أو مركزاً لسائر الأمراض النفسية. ودراسة "الوظيفة الرمزية" هي التي أملت على "لاكان" القول بضرورة الاعتراف بما للغة من سيادة، على اعتبار أن حجر الزاوية في كل البناء العلمى الضخم الذي قدمه "فرويد"، إنما هي هذه النظرية القائلة بسيادة اللغة وصدارة الكلام .

ويبين لنا "لاكان" الدور الذي يلعبه الرمز في "فكرة الموت" حينما استوقفه مفهوم "اللاشعور السلبى" تجاه الموت عند "فرويد"[31]. فالإنسان يعرف أنه مقدر عليه الموت، لكنه يعيش بمعزل عن التفكير فيه. واللاشعور السلبى هو حالة رمزية يظهر في موقف الإنسان المتضارب حيال موت شخص محبوب أو مكروه. فهو يعترف أن الموت نهاية الحياة، وفي الوقت ذاته ينكر هذه الحقيقة ولا يرهق ذهنه بالتفكير في لغز الحياة والموت؛ ولكنه يزهو بما حققه من انتصارات ومواقف بطولية في الحياة. ومن هنا يتفق "لاكان" مع "فرويد" في أن كل غرائزنا لا تعرف الموت ولا تخشاه .

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل الخامس

1- David H, Lund, Death and Consciousness, New York, Ballantine Books, 1985, p. 46.

2- **محمد منير منصور، الموت والمغامرة الروحية، ص 102.**

3- **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، تحت إشراف د. فرج عبد القادر طـه، دار سعاد الصباح، 1993، ص 154.**

انظر أيضاً: د. عبد الستار إبراهيم، الإنسان وعلم النفس، سلسلة عـالم المعرفـة، الكويت عدد (86)، 1985، ص33.

4- **محمد منير منصور، المرجع السابق، ص 105.**

5- David H, Lund, op. cit., p. 85.

6- **د. عزمي إسلام، مدخل إلى الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة)، مكتبـة سـعيد رأفـت، القاهرة، 1978، ص 235.**

قارن كذلك، فرانسوا غريغوار، المشكلات الميتافيزيقية الكبرى، ترجمة نهاد رضـا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان، ص 80.

7- The Psychology of Death.

http: // www. wyfda. org | basics_4,htm I.

8- **محمد منير منصور، المرجع سالف الذكر، ص115.**

9- **راجع بشيء من التفصيل:**

Mary Bradburg, Representations of Death (A Social Psychological perspective) Routledge, New York, 1999, p.5.

10- **انظر: أدموند هوسرل، تأملات ديكارتية، (المدخل إلى الظاهريات) ترجمة د. نازلى إسماعيل حسين، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص ص24 ـ 25.**

11- **د. زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص ص362 ـ 363.**

قارن كذلك:

obeikandi.com

Richard Kearney, Continental Philosophy in The 20th Century: Routledge History of Philosophy volume 8, Routledge USA and Canada, 1994, p. 37.

12- **هسرل، الفلسفة علماً دقيقاً، ترجمة د. محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة، 2002، ص 40.**

13- **محمد منير منصور، مرجع سبق ذكره ، ص 117.**

14- **المرجع السابق، ص 118.**

15- **انظر سيجمند فرويد، الأنا والهو، ترجمة د. محمد عثمان نجاتى، دار الشروق، القاهرة، 1982، ص 12، من مقدمة المترجم .**

16- **انظر بشيء من التفصيل: فرويد، معالم التحليل النفسى، ترجمة د. محمد عثمان نجاتى، دار الشروق، القاهرة، 1986، ص 45.**

17- **ـــــــ، الأنا والهو، ص ص 14 ـ 15 من مقدمة المترجم .**

18- **ـــــــ، معالم التحليل النفسى، ص ص 46 ـ 48.**

انظر أيضاً: ـــــــ، الموجز في التحليل النفسى، ترجمة سامى محمود على، وعبد السلام القفاش، مراجعة د. مصطفى زيور، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص ص 16 ـ 17.

19- Sigmund Freud, The Basic Writing (Psychopathology of Everyday Life, The interpretation of Dreams, and Three Contributions of the Theory of Sex) translated by A. A Brill, Random House, Inc, Toronto, 1995, p.109.

20- **فرويد، الأنا والهو، ص 18 من مقدمة المترجم .**

21- **ـــــــ، الموجز في التحليل النفسى، ص 88.**

22- **ـــــــ، معالم التحليل النفسى، ص ص50 ـ 51.**

23- **ـــــــ، ما فوق مبدأ اللذة، ترجمة إسحق رمزى، دار المعارف، القاهرة، 1994، ص 86.**

قارن كذلك :

Freud, Inhibitions, Symptoms and Anxiety, translated by Peter Gay, Norton and Company, Inc, New York, 1989, p. 95.

انظر أيضاً: روبن أوسبورن، الماركسية والتحليل النفسى، ترجمة د. سعاد

الشرقاوى، ومراجعة د. مصطفى زيور، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص40.

24- The Psychology of Death and Loss.

http: // www. U. arizona-edu/ - mertens/ psych 456/ syllabus 456. htmI.

25- **روبن أوسبورن، المرجع السابق ، ص** 15.

26- **محمد منير منصور، الموت والمغامرة الروحية ، ص** 124.

27- **د. محمود رجب، فلسفة المرآة، دار المعارف، القاهرة، 1994، ص ص**200 ـ 201.

28- Ellie Ragland, Essays on The Pleasures of Death, From Freud To Lacan, Published in Great Britian, Routledge, 1995, p. 84.

29- **د. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة، 1990، ص** 182.

30- **المرجع السابق، الموضوع عينه.**

31- **انظر في ذلك: جون فورستر، وظيفة الزمن في التحليل النفسى، من كتاب "جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى" إعداد وترجمة عبد المقصود عبد الكريم، المجلس الأعلى للثقافة، 1994، ص** 266.

* * *

obeikandl.com